

الكتاب الرابع والعشرون
أدب الاختلاف في الإسلام
 تأليف أ.د. طه جابر العلواني
 تحليل وعرض أ.د. محمد المنسي

تقديم:

يعد كتاب «أدب الاختلاف في الإسلام» للأستاذ الدكتور/ طه جابر العلواني من الكتب التي أوضحت بإيجاز حقيقة الاختلاف بين الفقهاء، وبينت آدابه، عارضة بذلك صورة مشرقة للإسلام، في حقبة ظهر فيها تشويبه جلياً، وبدت فيه ملامح الفرق بين المسلمين واضحة، وظهرت معالم الهوة الشاسعة بينهم.

والكتاب مساهمة جادة في تحقيق الوعي بقضايا الساحة الإسلامية، ومحاولة صادقة لرأب الصدع، ومعالجة جذور الأزمة الفكرية لدى الأمة، وإيقاظ البعد الإيماني في النفوس، وتذكير بأن الاختلاف الأهوج، والهوى الغالب المتبع، مرضان خطيران، لا بد من مقاومتهما ومحاربتهما، والتنزه عن آثارهما؛ فذلك شرط أول لمعالجة الأزمة الفكرية للأمة، وإصلاح مناهجها، وإعادة ترتيب أولوياتها.

والكتاب في ذات الوقت محاولة على مستوى عال لتذكير المسلم المعاصر بما كان عليه السلف الصالح من منهاجية سليمة، وضوابط مستقيمة، وقواعد متينة للاجتهاد والاستنتاج وضبط الرأي، وتنبيه العقل المسلم إلى أن واجبه الأساس هو إدراك دوره الحضاري، ومعرفة كليات الشريعة، وغاياتها ومقاصدها من خلال ذلك كله.

والكتاب كغيره من كتب المؤلف، يخاطب الأمة الإسلامية، ومن خلالها يوجه رسالة إلى الغرب، موضحاً الصورة الحقيقية للإسلام؛ ليؤكد أن ما يوجد على

الساحة من فرقة وتناحر لا يمثل الإسلام في شيء.

والمؤلف كعاداته ينطلق من النصوص الشرعية في بيان أفكاره، وذلك من خلال فهم دقيق، وإدراك عميق، يعكس الوسطية الإسلامية الحقة، التي تبناها المؤلف وأمثاله من العلماء الأجلاء في عصرنا، والتي أثرت في اختياراته الموفقة في كتابه.

مؤلف الكتاب:

- ١ - هو فضيلة الأستاذ الدكتور: طه جابر العلواني، من علماء العراق، ولد عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م، وتلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في العراق.
- ٢ - التحق بكلية الشريعة والقانون في جامعة الأزهر الشريف، وحصل على العالمية عام ١٣٨٧هـ / ١٩٥٩م، ثم على الماجستير عام ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م، ثم على الدكتوراة عام ١٣٩٢هـ / ١٩٧٣م عن تحقيقه للمحصول في علم أصول الفقه، للإمام الفخر الرازي.
- ٣ - عمل أستاذًا للفقه وأصوله في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض بين عامي ١٣٩٥هـ / ١٩٧٥م و١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م.
- ٤ - شارك في تأسيس المعهد العالمي للفكر الإسلامي في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٤٠١هـ / ١٩٨١م، وترأسه مدة طويلة، كما ترأس المجلس الفقهي لأمريكا الشمالية.
- ٥ - وهو عضو المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي بمكة المكرمة.
- ٦ - وعضو بمجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة.
- ٧ - له عدة مؤلفات وأبحاث، منها:
- ٨ - الاجتهاد والتقليد في الإسلام.
- ٩ - أدب الاختلاف في الإسلام.

١٠- ابن تيمية وإسلامية المعرفة.

١١- إصلاح الفكر الإسلامي.

١٢- أصول الفقه الإسلامي.

طباعات الكتاب:

طبع كتاب أدب الاختلاف في الإسلام ست طباعات؛ أولها ضمن سلسلة كتاب الأمة في قطر، عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، وآخرها عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، طبعتها الدار العالمية للكتاب الإسلامي في الرياض، بالتعاون مع المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

خطة الكتاب:

قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وستة فصول وخاتمة، وجاء في (١٧٨) صفحة، ذيلها بثلاثة فهارس (كشافات)؛ الأول: للآيات القرآنية الواردة في الكتاب، مرتبة ترتيباً هجائياً. والثاني: للأحاديث الشريفة، بنفس الترتيب. والثالث: أسماه الكشاف العام، وضمنه ما ورد في كتابه من أعلام وفرق ومصطلحات، ولو أنه فصل بينها لكان أفضل، وأما فهرس المحتويات فكان في أول الكتاب، كعادة بعض المؤلفين.

وفيا يلي عرض سريع للكتاب، ونقد موجز لمحتوياته.

أولاً: المقدمة

افتتح المؤلف كتابه بمقدمة، ضمنها أفكاراً، مفادها كما يلي:

- ١- تعرضت الأمة الإسلامية في عصرنا لأمراض متعددة في مختلف المجالات،
- ٢- ورغم خطورتها فإنها لم تصب الأمة في مقتل؛ لوجود كتاب الله (تعالى) وسنة رسوله ﷺ،
- ٣- واستغفار الصالحين بين ظهرانيها.
- ٤- إن أخطر داء ابتليت به الأمة هو الاختلاف والمخالفة؛ لأنه مضاد للتوحيد،
- ٥- الذي هو أساس الإيمان،
- ٦- فبعد التوحيد دعت النصوص الشرعية

- وتعاليم الإسلام العامة إلى وحدة الصف والتألف، ٧- والمخالفة مناقضة لذلك.
- ٨- الاختلاف والبغي وتفرق الدين عِلَلٌ تهلك الأمم، ٩- فكانت قصص الأمم السابقة عبرة لأمتنا التي حملت الرسالة الخاتمة، ١٠- التي حذرها الله (تعالى) من الخلاف المؤدي إلى التفرق، ١١- وذلك في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩].
- ١٢- الاختلاف في وجهات النظر، ١٣ وتقدير الأشياء، ١٤- والحكم عليها - أمر فطري طبيعي، ١٥- وله علاقة بالفروق الفردية إلى حد كبير، ١٦- وهو ظاهره صحية، ١٧ تغني العقل المسلم بخصوبة رأي، ١٨- وعمق تمحيص، ١٩- وإطلاع أوسع على وجهات متعددة، ٢٠- وزوايا رؤية مختلفة، ٢١- وإمعان نظر وتدقيق، ٢٢- وقدح لزناد الفكر ٢٣ - لكنه إذا انحرف عن ذلك، ٢٤- وأدى إلى التنافر، ٢٥- فنتيجته الفرقة والتخلف. ٢٦- كان اختلاف السلف مثمرًا؛ لأنه لم يتعارض مع وحدة القلوب والغايات والأهداف، ٢٧- وذلك لتخلصهم من العلل النفسية، ٢٨- بعكس ما نحن عليه اليوم؛ لأن الأهواء الشخصية، ٢٩- وتغليب المصالح سيطرت على نفوسنا، ٣٠- فأدى ذلك إلى النزاع لا الاختلاف فقط.
- ٣١- لا سبيل للخروج من الأزمة الفكرية الراهنة إلا بمعالجة جذورها، ٣٢- وإصلاح مناهج التفكير، ٣٣- من خلال إعادة الصياغة الفكرية للعقول، ٣٤- وإعادة الترتيب المفقود للأولويات، ٣٥- وتربية الأجيال المسلمة على ذلك، ٣٦- وهذا لا يتم إلا بالرجوع إلى ما كان عليه الرعيل الأول للأمة.
- ثم ذكّل المؤلف مقدمته ببيان موقف الناس من كتابه؛ حيث كانوا بين مؤيد ومعارض ومستدرك، شكر الأول، واستغرب من الثاني، ووعد المستدرك خيرًا بتدارك ما أشار إليه في الطبقات القادمة.

والمقدمة ينقصها بيان خطة الكتاب، ومناهج تطبيقها، وذكر ما واجه المؤلف من صعوبات،

ثانيًا: الفصل الأول: في بيان حقيقة الاختلاف وما يتصل بها

تحدث المؤلف عن الاختلاف والخلاف وعلم الخلاف، وبين الجدل وعلم الجدل، والشقاق، حيث كشف جوانب الصلة، وأظهر أوجه الافتراق بينها، ثم ذكر المقبول والمردود من الاختلاف، ووضح بعض فوائد الاختلاف المقبول، وقسم الخلاف من حيث دوافعه إلى خلاف أملاه الهوى، وخلاف أملاه الحق، وخلاف يتردد بين المدح والذم، وختم الفصل بذكر رأي العلماء في الخلاف، ومن أبرز الأفكار في هذا الفصل ما يلي:

٥ الخلاف والاختلاف يراد به: مطلق المغايرة في القول، أو الرأي، أو الحالة، أو الهيئة، أو الموقف.

٦ علم الخلاف يمكن كل من حفظ استنباطات إمامه وهدم ما خالفها دون استناد إلى دليل مخصوص.

٧ الجدل لغة: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، مأخوذ من: جدلت الحبل، إذا فتلته وأحكمت فتله؛ فإن كل واحد من المتجادلين يحاول أن يقتل صاحبه، ويجدله بقوة وإحكام على رأيه الذي يراه.

وأما علم الجدل فهو علم يقوم على مقابلة الأدلة؛ لإظهار أرجح الأقوال الفقهية.

وعرفه بعضهم بأنه: علم يقتدر به على حفظ أيّ وضع يُراد، ولو باطلاً، وهدم أيّ وضع يُراد، ولو حقاً.

١٣ يقوم الشقاق على اشتداد الخصومة بين المتجادلين، بحيث يُؤثر كل منهم

الغلبة بدل الحرص على ظهور الحق ووضوح الصواب، ويتعذر قيام تفاهم بينهم أو اتفاق.

١٤ الاختلاف إذا لم يتجاوز حدوده، والتزمت آدابه، كان ظاهرة إيجابية كثيرة **الفوائد، ومن فوائد هذا الاختلاف الإيجابي:**

١٥ التعرف على جميع الاحتمالات التي يمكن أن يكون الدليل قصد إليها بوجه من وجوه الأدلة.

١٦ فتح مجالات التفكير للوصول إلى سائر الافتراضات التي تستطيع العقول المختلفة الوصول إليها.

ج- تعدد الحلول أمام صاحب كل واقعة؛ ليهتدي إلى الحل المناسب للوضع الذي هو فيه، بما يتناسب ويُسر هذا الدين من ناحية، وتحقيق مصلحة الناس من ناحية أخرى.

١٨ الخلاف الذي يمليه الهوى مذمومٌ بكل وجوهه؛ لغلبة الهوى فيه على تحري الحق والحرص عليه.

١٩ الخلاف الذي يمليه الحق واجبٌ، كمخالفة أهل الإيمان لأهل الكفر والشرك والنفاق، إلا أنه لا يمنع من إرشادهم إلى الحق ودعوتهم إليه.

٢٠ الخلاف الذي يتردد بين المدح والذم، وهو خلاف في أمور فرعية، كاختلاف العلماء في حكم القراءة خلف الإمام، وقراءة البسمة قبل الفاتحة... وغير ذلك. وهذا النوع من الخلاف مزلة الأقدام؛ إذ يمكن فيه أن يلتبس الهوى بالتقوى، والعلم بالظن، والراجح بالمرجوح، والمردود بالمقبول، ولا سبيل إلى تحاشي هذا النوع إلا باتباع قواعد يُحتكم إليها عند الاختلاف، وضوابط تُنظمه، وآداب تُهيمن عليه، وإلا تحوّل إلى شقاق ونزاع وفشل.

ثالثاً: الفصل الثاني: تاريخ الاختلاف وتطوره

مما لا شك فيه أن الاختلاف بدأ في عصر النبي ﷺ، ثم في عصر الصحابة، ثم في عهد التابعين، وهكذا نستطيع القول: إن ظاهرة الاختلاف وُجِدَتْ منذ العهد الأول للرسالة حتى يومنا هذا، وستظل موجودة حتى قيام الساعة؛ لأن الاختلاف بين البشر سُنَّةٌ إلهية، لا يمكن أن تتغير أو تتبدل.

وقد أشار المؤلف إلى الآداب التي اتسم بها الاختلاف في كل عصر، على النحو الآتي:

أولاً: معالم أدب الاختلاف في عصر النبوة:

- ١ - كان الصحابة يسعون إلى عدم الاختلاف ما أمكن، فلم يكثروا من المسائل والتفريعات، بل كانوا يعالجون ما وقع من نوازل وأحداث في ضوء القرآن والسنة.
- ٢ - كان لدى جميع الصحابة شعور بأن ما ذهب إليه أخوه يحتمل الصواب، كالذي يراه لنفسه، وهذا الشعور كان كفيلاً بالحفاظ على احترام كلٍّ منهم للآخر، والبعد عن التعصب للرأي.

- ٣ - كان الصحابة يبتعدون عن الجدل، ويبدلون أقصى أنواع الجهد في الوصول إلى الحقيقة، ويبتعدون عن استخدام الألفاظ التي تغضب المخالف.

ثانياً: معالم أدب الاختلاف في عصر الصحابة:

بالإضافة إلى الآداب السابقة أضاف المؤلف بعض الآداب وهي:

- ١ - كانت أخوة الإسلام بينهم أصلاً من أصول الإسلام المهمة، وهي مسألة فوق الخلاف أو الوفاق في المسائل الاجتهادية.
- ٢ - لم تكن المسائل الاعتقادية مجالاً للخلاف، الذي ظل في دائرة الفروع الفقهية.

٣- كانت نظرهم إلى استدراكات بعضهم على بعض أنها معونة يقدمها كل منهم لأخيه، وليست عيباً أو نقداً.

أما آداب الخلاف في عهد التابعين، فنجد أنهم قد مضوا على المنهج نفسه الذي التزم به الصحابة - رضي الله عنهم -؛ حيث تلقوا عنهم العلم والفقه، وتربوا على أيديهم، وتأدبوا بآدابهم، وتأثروا بمناهجهم في الاستنباط، وذلك يتضح من المناظرات العلمية التي قامت بينهم، والآراء التي نقلت عنهم.

رابعاً: الفصل الثالث: اختلاف مناهج الأئمة في الاستنباط

يشي عنوان الفصل بمضمونه؛ حيث تكلم المؤلف بإيجاز عن ظهور الأئمة المجتهدين، وعدّد أبرزهم، وتحدث عن أصول المذاهب الفقهية الأربعة المعتمدة، بالإضافة إلى أصول المذهب الظاهري، وختم الفصل بكلمة تحت عنوان: «ولنا كلمة»، رأيت إيرادها؛ لأن الفصل ككل كلام مكرور قُتِلَ بحثاً.

يقول المؤلف: «والحقيقة: أن كثيراً من الأصول التي نسبت إلى الأئمة المتبوعين هي أصول مُحَرَّجة على أقوالهم، لا تصح بها الروايات عنهم؛ فالتشبه بها، والدفاع عنها، وتكلف إيراد الاعتراضات والإجابة عنها، والرد على ما يخالفها، والانشغال بكل ذلك عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ذلك كله من أبرز دواعي الاختلاف السيئ، الذي لم يهدف إليه الأئمة أنفسهم، رحمهم الله، وقد أبعد هذا المتأخرين من المسلمين عن معالي الأمور، وشغلهم بسفاسفها، حتى تدنّت الأمة إلى ذلك الدرك الهابط، الذي تتمرغ فيه اليوم» ص ٩٩.

خامساً: الفصل الرابع: أسباب الاختلاف وتطورها:

حيث قسم المؤلف هذه الأسباب إلى قسمين:

١- أسباب الاختلاف من عهد النبوة حتى عهد الفقهاء.

٢- أسباب الاختلافات الفقهية في عصر الفقهاء.

ومما ذكره في هذا الفصل:

٣- أن الاختلاف يكون مشروعاً، إذا توفر فيه شرطان:

أ- الأول: أن يكون لكل من المختلفين دليلٌ يصح الاحتجاج به، فما لم يكن له دليلٌ يحتج به سقط، ولم يعتبر أصلاً.

ب- الثاني: ألا يؤدي الأخذ بالمذهب المخالف إلى محال أو باطل، فإن كان ذلك، بطل منذ البداية، ولم يَسعَ أحد القول به بحال، وبهذين الأمرين يغيّر «الاختلاف» «الخلاف».

٤- أن أسباب الاختلاف في عصر الفقهاء أنواع:

٥- الأول: أسباب تعود إلى اللغة.

٦- الثاني: أسباب تعود إلى رواية السنن.

٧- الثالث: أسباب تعود إلى القواعد الأصولية وضوابط الاستنباط.

سادساً: الفصل الخامس: في معالم الاختلاف بين الأئمة وآدابه:

وفيه نماذج حية من واقع اختلاف علماء الأمة (رحمهم الله)، ذكرها المؤلف إحياءً للقدوة الحسنة، والأسوة الطيبة.

سابعاً: الفصل السادس: الخلاف بعد القرون الخيرة وآدابه:

وفيه وصف لما آلت إليه الأمة بعد إغلاق باب الاجتهاد، وتفشي التقليد، وظهور التعصب، والتعامل بالحيل في الإفتاء، وفيه بيان لأسباب الاختلاف اليوم، ثم ذكر المؤلف سبيل النجاة في أمرين:

١- تربية جيل مخلص؛ لإحياء العلوم الشرعية، ٢- والدعوة إلى التعمق في أساسيات الاجتهاد؛ لمواجهة سلبيات الاختلاف.

٣- تعديل مسار الفكر لدى المسلمين، ٤- بحيث تُعالج الأزمة الفكرية التي

يعيشها المسلمون اليوم، ٥- هذه الأزمة التي تبرز بوضوح من خلال انهيار مؤسسات الأمة، ٦- وانعدام منظماتها، ٧- وتدنى مستوى الوعي والمعرفة والتربية في أبنائها، ٨- وتفكك علاقاتها، ٩- وانحراف الكثرة الغالبة من قياداتها

ثامناً: الخاتمة:

جاءت خاتمة الكتاب كتوصيات غير مباشرة، جعلها المؤلف في سبع نقاط، رسم بها طريق تحقيق الهدفين اللذين ذيل بهما الفصل السابق تحت عنوان «سبيل النجاة»، وهذه النقاط موجزها كالتالي:

- ١- أن التعامل مع القرآن والسنة كمصدرين أساسيين للتشريع لا بد أن يسبقه استعداد قائم على التزود بأدوات الاجتهاد، من خلال دراسة منهجية دقيقة.
- ٢- أن الشريعة الإسلامية جاءت متكفلة بسعادة الدارين؛ لذلك جاءت أحكامها مراعية للطاقة البشرية، وعليه فإن المجتهد يجب أن يحيط - قدر طاقته - بكليات الشريعة وجزئياتها؛ ليستطيع عن وعي وإدراك عميق أن يحقق مقاصد الشريعة.
- ٣- أن وحدة الصف، والأخوة في الإسلام، من أهم الفرائض وأخطرها؛ لذلك يجب الحرص عليها؛ لأنها شقيقة توحيد العقيدة، وعليه يجب ألا يؤدي الخلاف في الرأي إلى الفرقة والتباعد.
- ٤- أنه لولا تفاوت مراتب العبادات والطاعات، لما تباينت مراتب المؤمنين في الجنة؛ فطاقات الناس مختلفة، وقدراتهم متباينة؛ لذلك لا ينتظر من جميع الناس تحقيق الصورة المثلى للإسلام.
- ٥- أن معرفة أسباب اختلاف الفقهاء الأوائل، ومدى موضوعيتها، يساعد على التقليل من الاختلاف في الوقت الحاضر، ويبعث على التحلي بأدابه.

٦- كما أن معرفة ما يترتب على الفرقة من مخاطر على الأمة. يكون باعثاً على التمسك بأداب الاختلاف.

٧- الالتزام بتقوى الله (تعالى)، وإخلاص النية له، والتجرد عن الهوى، والبعد عن نزغات الشيطان؛ فذلك يحمي من سلبات الاختلاف، ويحافظ على وحدة الأمة، رغم تعدد الآراء والمذاهب.

وأرى أن المؤلف لو أضاف إلى ما سبق موجزاً لما توصل إليه من نتائج، لكان ذلك زيادة في الخير والاستفادة.

أخيراً:

بعد هذه الجولة الماتعة - على قصرها - في كتاب شائق الأسلوب، رشيق العبارة، سطره عالم فذ، عالج به أزمة فكرية راهنة، أقول: إن الكتاب رغم صلاحيته لتأصيل مسألة الاختلاف في الإسلام، ألا أنه يحتاج إلى:

١- التوسع في مباحثه؛ لتشمل ما طرأ على الساحة بعد قرابة ٣٠ سنة من صدوره، نظراً لتوسع الخلاف بين الجماعات الإسلامية وفرقها، وتطور الأحداث في العالم بشكل سريع وخطير.

٢- إن توثيق بعض المعلومات يحتاج إلى مراجعة وضبط.

٣- إعادة النظر في الفصل الثاني، الذي استغرق من ص ٣٣-٨٦، أي بما يساوي الكتاب تقريباً؛ حيث جاءت الأفكار والموضوعات متداخلة، وكان الأولى أن ترتب بصورة أفضل مما هي عليه وأقترح ترتيبها زمنياً، مع استبعاد ما لا يتصل بها.

٤- وأخيراً يُحسب للكتاب أنه لفت الانتباه منذ فترة طويلة إلى هذا الدواء الذي تحتاج إليه الأمة في كل عصر، وخاصة في عصرنا الذي زادت فيه مساحة الاختلاف.